لماذا يغرد العندليب؟

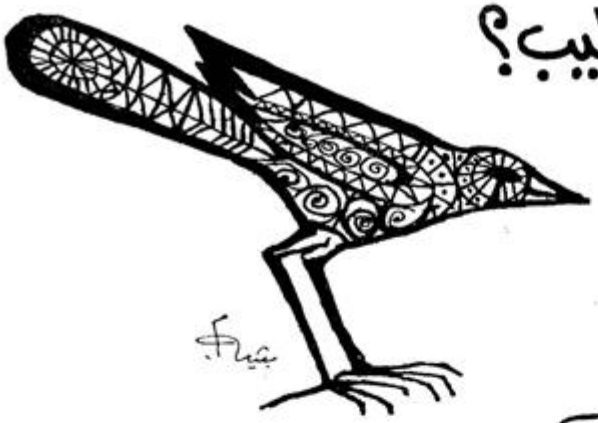

من الأدب الروسى

قصة ميخائيل زوشتشنكو

ترجمة وصفى آل وصفى

ولد ميخائيل زوشتشنكو عام ١٨٩٥ وتوفى عام ١٩٥٨ وكان الكاتب الساخر العظيم فى الأدب السوفيتى . ومن أعماله « قصة حياة » و « مغامرات قرد » .

الهى ، ما أصعب الخلق الأدبى !

لابد لنا أن نكدح ، ونتصبب عرقا ، لنتفادى جميع الشراك المنصوبة تحت أقدامنا ..

وفيم كل هذا العناء ؟ لمجرد أن نروى قصة غراميات « بيلينكين ـ بازيل »

ومع ذلك فلا هو ابن عم ، ولا هو أخ للمؤلف . والمؤلف لم يقترض منه مالا ، وليس ثمة ما يجمع بينهما على الاطلاق . بل ان أمر هذا البيلينكين ، اذا شئنا الحقيقة ، لا يعنيه فى شىء ؛ لهذا فهو لن يتلهى باستعمال ما على لوحته من ألوان غاية فى الجمال لتصويره خاصة وأنه لم يعد يذكر جيدا مظهره الخارجى .

والشخصيات الأخرى فى هذه القصة، على اختلاف أهميتها ، لم تحظ أيضا من المؤلف الا بدراسة ضئيلة . لا يستثنى منها سوى « ليزيت » لأسباب خاصة وشخصية تماما . أما أخوها « ميشيل » فقد بات أقل مما كان رسوخا فى ذاكرته ، وقد كان فتى وقحا متهجما متكبرا سمجا .. ولن يفيدنا البتة أن نتوسع فى وصفه . أما العجوز ، أم ليزيت ـ انجاز التعبير ـ فالقارىء نفسه لن يفتقد شيئا اذا لم يعرفها .. بالاضافة الى أن رسم لوحة فنية أصيلة لعجوز من الصعوبة بمكان لقد كانت ، كما يقولون ، عجوزا .. لا شىء بعد ذلك .

والمؤلف ، بداهة ، ما كان ليشرع فى كتابة هذه القصة لو لم يكن يعرف غير هذه المعلومات الضحلة عن أبطالها . والواقع أن لديه وفرة غيرها ؛ تحضره على سبيل المثال صورة كاملة لمجريات حياتهم البسيطة ، منزلهم الصغير ، كوخهم المعتم برقم ٢٢ .

كما يتخيل أيضا بكل جلاء باطن هذا المنزل ، ما به من أثاث و « روحه »

ان صح التعبير · ثلاث حجرات صغيرة ، أرضية خشبية مقوسة ، معزف طراز « بيكير » ·· أحد تلك المعازف المرعبة أريكة فوقها قط لا ينزل عنها أبدا ، ذراع ساعة متعطل فوق المدفأة تحت ناقوس زجاجي يغشاه التراب من كل جانب ، مرآة عكرة ملطخة بآثار الذباب تمسخ كل شيء ، وصندوق ضخم ينبعث منه نتن النفتالين والذباب الميت ·

أي كدر أن تضطر الى الحياة هنالك !

انك لحرى أن تبغض مطبخهم كل البغض ، فهو مزدحم دائما بثياب مغسولة منشورة لتجف على حبال مشدودة به ، تقبع فيه العجوز أمام الموقد دائبة على تقشير شيء ما كالبطاطس مثلا والقشر يتساقط عن السكين في أشرطة حلزونية ··

ولا يظن القارىء ، بخاصة ، أن المؤلف معجب بسرد كل تلك التفاصيل السطحية · أبدا ، فليس ثمة ما هو جميل أو شاعري في هذه الذكريات الهزيلة · لكن المؤلف يعرف مثل تلك الدخائل ، وقد عاش فيها · ليس هذا تهريجا ، على النقيض ·· انه ليستثير الرغبة في البكاء · ما ان تدخل المطبخ حتى يلطم أنفك حتما شيء من الثياب المبللة ، وحمدا لو يكون شيئا ملائما مظهرا نبيلا من مظاهر النظافة البشرية ـ ذلك أنه لن يكون في الغالب الا زوجا من الجوارب القديمة · أف ! أية قذارة ! مما لاصلة له بالأدب ، أن ينفذ لدى آل

ولقد اقتضت المؤلف بعض الظروف، روندوكف » هؤلاء . وفي كل مرة كان يظل مذهولا ويتعذر عليه أن يدرك كيف أمكن أن تزدهر في ذلك الكوخ تلك الشابة البديعة ، تلك السوسنة ، برعم الوردة ذاك الذي يدعى ليزيت روندوكف كانت تستأهل الرثاء حقا ··

ولسوف نعود الى التحدث عنها بعد قليل ، وبالتفصيل · أما الآن فلا بد لنا من الكلام قليلا عن المواطن « بازيل بيلينكين » · أي نوع من الأشخاص كان ؟ من أين أتى ؟ ما هي آراؤه السياسية ؟ ما طبيعة علاقته بآل روندوكف ؟ ألم يكن قريبا لهم ؟

لا ، لم تكن لهم به صلة قرابة ·· فلقد دخل حياتهم بمحض الصدفة ودون أي تدبير سابق ·

والمؤلف وان كان قد نسي ملامح وسمات بازيل ، كما قال من قبل ، الا أنه يستطيع أن يغمض عينيه فستعيد له بوضوح خصائص بعينها ··

كان يمشي ببطء دائما ، لكأنما هو مستغرق في تفكير عميق ، ويداه خلف ظهره · لا يكاد يكف عن الطرف بعينيه ، وظهره محنى على الدوام ينوء بثقل الحياة أغلب الظن · كعبا حذاءه متآكلان باستمرار ، مقعران الى الداخل

وكان تعليمه ، قياسا على مظهره · قد بلغ على الأقل حد الشهادة الابتدائية·

كان مجهول الماضي ، فقد وصل الى موسكو وقت الثورة ولم يكن يتحدث عن سابق حياته أبدا ·

وكانت الأسباب التي حدت به الى الهجرة من العاصمة قليلة الوضوح ·· ترى هل فعل ذلك لأن الريف كان يبدو له أكثر قدرة على اشباع جوعه ؟ أم أن الأمر كان مجرد اشتياق الى المغامرة والآفاق المجهولة ؟ الشيطان وحده يعرف !

أرجح أن الجوع هو الذي طرده من العاصمة ، فقد دأب عند مجيئه على

التوجه الى السوق كل يوم ليحدق فى أكوام الطعام بنظرات شرهة ·

أما مصدر رزقه فى تلك الأيام فلا يزال بالنسبة للمؤلف لغزا مستعصيا ، ترى أكان يستجدى أم كان يلتقط سدادات الزجاجات ليبيعها ؟ من يدرى ؟

مهما يكن من أمر فقد ساءت حالته فبليت ثيابه وتساقط شعر رأسه · وكان يسير على رجل ، يتلفت حوله بين لحظة وأخرى وهو يسحب قدميه · حتى عيناه ، لم يعد يطرف بهما ، وجمدت نظرته بشكل محزن ·

وفجأة انتعشت حاله وارتفع شأنه ، دون أسباب معروفة · وفى ابان قصتنا الغرامية هذه كان قد بلغ مركزا اجتماعيا مرموقا : كان موظفا حكوميا يتقاضى مرتبا مناسبا وعلاوة معتبرة لغلاء المعيشة ·

واكتسب بدنه بعض الاستدارة ، امتص ـ ان جاز القول ـ عصارات منعشة فعاد يطرف بعينيه كثيرا وبنشاط ··

بات يمشى بخطوات وئيدة كمن خبر الدنيا ، من انتزع حقه فى الحياة ويعرف لنفسه قدرها ·

والواقع أنه كان لا يزال وقت هذه الأحداث رجلا جد مقبول ، فى الثانية والثلاثين ··

كان كثيرا ما ينطلق متريضا ، لسافات طويلة ·· وهو يلوح بعصاه فيطيح بما يصادفه من أزهار وعشب أو حتى مجرد الأوراق · وأحيانا ماكان يجلس فى أريكة بالميدان ، ويروح يتنفس وسع رئتيه وهو يبتسم فى غبطة ·· الا أن أحدا لن يعرف أبدا شيئا مما كان يكلل جبهته من أفكار ومشروعات عظيمة · ومن الجائز أيضا أنه لم يكن يفكر فى شىء ، بل يستسلم ببساطة لشعور غامر بالرضا عن ذات وجوده ؛ أو أنه ، وهذا أكثر احتمالا ، كان يبحث وسائل تغيير مسكنه ·

ذلك أنه ، ولا مفر من الاعتراف ، كان يسكن عند « فولوساتوف » ·· الشماس المنشق · وهو كموظف حكومى كان نهبا لقلق بالغ نتيجة لاضطراره الى مساكنة شخص مشكوك فيه الى هذا الحد ، من وجهة النظر السياسية ·

كان يسأل معارفه ، المرة بعد المرة ، عساه يعلم ما اذا كان أحدهم يدرى مصادفة بوجود غرفة شاغرة · حيث أنه لم يعد يطيق ، على حد قوله ، جيرة ذلك مبلغ شبهتها ·

وأخيرا دله أحدهم بروح طيبة على غرفة شاغرة ، وان تكن جد صغيرة حقا الا أنها عند آل روندوكف المبجلين وعلى الفور ، بمجرد أن عاين الحجرة ، جاء بيلينكين بالسقاء لينقل أثاث غرفته ··

ولم يكن الشماس بحاجة أبدا الى هذا المستأجر ، ولكن ما ان بلغه نبأ انتقاله حتى بدا مهانا فى أطيب مشاعره · وراح يقسم ، بل ويهدد بكسر خيشوم ذلك البيلينكين التعس فى أول مناسبة ! وطوال الوقت الذى قضاه بازيل فى تحميل مقتنياته فوق عربة اليد ، ظل ملازما النافذة يقهقه ليفهم الجميع جيدا الى أى حد لا يهمه ذلك الرحيل ·

أما زوجة الشماس فكانت تخرج الى الفناء ، من وقت الى آخر ، لتصيح وهى ترمى شيئا ما فوق العربة :

« مع ألف سلامة ! بعدا ! سئمناك ! أحد لا يتمسك بك ! » ·

بينما الجيران ، والمتسكعون ، يتمايلون من الضحك وهم يتبادلون تعليقات مشينة عن صلات غرامية يزعمونها بين بازيل وزوجة الشماس · والمؤلف يأسف لعجزه عن أن يقول فى ذلك شيئا ، وهو لا يعرف منه شيئا · بالاضافة الى أنه لا يميل الى نشر الفضائح ، وخاصة فى عمل أدبى ·

أما غرفة آل روندوكف فكانت تؤجر بلا أى رغبة فى الكسب ، وحتى دون ما حاجة فعليه · كانت العجوز فى الحقيقة تخشى ، وأزمة المساكن قائمة ، أن يصيبها تكليف اسكان محتمل قد يضطرها الى قبول من لا ترضى عنه ·

ولقد أراد بيلينكين من جانبه أن يستغل الموقف لمصلحته بعض الشىء ، وبينما هو يمر أمام المعزف البيكر نظر اليه باستياء ولا حظ بعبارة تفتقر الى اللطف أن تلك الآلة كما لو قلنا عديمة النفع ·· وأنه هو ، بيلينكين ، الرجل الرزين ، الذى عركته الدنيا ، وقد كان بالجبهة التى دقتها المدفعية الثقيلة ، لا يمكنه احتمال ضوضاء غير مألوفة ومبتذلة ·

واستبد الغضب بالعجوز فأفحمته قائلة ان ذلك المعزف قائم فى مكانه منذ أكثر من أربعين عاما ، وانها لن تحطمه ارضاء لخاطر بيلينكين ولن تنزع أوتاره ودواساته ·· خاصة وان ليزيت تتعلم العزف عليه ولربما كان فى ذلك كل مستقبلها ·

عندئذ تراجع بيلينكين ، يتظاهر بانه حتى لم يعبر عن رغبته الاكرجاء متواضع وأنه لم يبدها فى صيغة الأمر غير أن العجوز جعلت تبكى ، ولولا أن فكرة تكليف الاسكان المحتمل ارتدت الى خاطرها فجأة لا تنتهى بها الأمر الى طرد بيلينكين ·

وهكذا انتقل بازيل الى غرفته الجديدة صباحا ، وقضى اليوم بطوله فى ترتيب مقتنياته ·

ومضى يومان أو ثلاثة دون تغيير ، يخرج بازيل الى مكتبه فى الصباح ويعود متأخرا ليذرع غرفته جيئة وذهابا وهو يجرر حذاءه · ثم يرقد ، يغمغم وينام فيغط غطيطا رقيقا ·

وعاشت ليزيت تلك الأيام كروح معذبة ، تستفهم من أمها وأخيها عن شخصية النزيل ، عن عاداته ، عما اذا كان يدخن الغليون ، بل وتسأل ولا من يعرف لماذا ان لم يكن قد عمل ضابطا بالبحرية ·

وأخيرا شاهدته فى اليوم الثالث لأول مرة ··

بكر بازيل كعادته الى المطبخ ليغتسل فى قميص نومه وحمالته السائبة تتأرجح من جانب الى آخر ، يمسك بيمناه منشفة وقطعة من الصابون ويملى بيسراه شعره الذى شوشه الرقاد ·

وكانت ليزيت ، بقميصها ، قد شرعت فى اعداد الشاى ·· فما ان لمحته حتى أطلقت صيحة خافتة وخجلة من ردائها ووثبت جانبا ·

والواقع أنها كانت ذلك الصباح بديعة بحق ، تمثل تلك الفوضى المحببة التى تغشى المرأة وقد استيقظت لتوها ، فى قدميها خف ، لم تغتسل بعد ، وأخذت فى تدبير منزلها ·

هذا النوع من النساء لا يكرهه المؤلف ، وليس ثمة ما يحفظه عليه ·

واعترافا بالحق فان تلك النساء ليس فيهن ما هو فائق ولا حتى ما هو جذاب ، تجدهن بصفة عامة بدينات ، نظراتهن بليدة ، بلا حيوية ، بلا مزاج ، بلا دلال · حركاتهن متراخية ، ثيابهن مهدلة ، وشعورهن مشعثة : الواقع أن ذلك لما يثير الاشمئزاز أيضا ·· ولكن ماذا تريدون ؟

انه لأمر غريب ·· ولكن المرأة الشابة ، شبيهة الدمية ، بدعة القصص الغربى ، لا تحلو للمؤلف · تواجهك، دائما ، بواحدة من تلك « التسريحات» ـ ليخطفها الشيطان ! ـ التى لا تجرؤ أن تلمسها مخافة الفضيحة · كذلك ثوبها ، يتمزق أو يتسخ عند أدنى حركة · فيم اذن خلقت ؟ وانى تكون اذن مسرات ومباهج الحياة فى ظل مثل تلك التحفظات ؟

ان المؤلف ليحب الثقافة الغربية ويعجب بها ، بيد أن له فيما يتعلق بالنساء ـ كما تلاحظون ـ رأيا شخصيا تماما ·· ويبدو أن بيلينكين كان يعتنق نفس الآراء فى هذا الشأن !

أيا كان الأمر فقد تسمر أمام ليزيت ، وقد فغر الاعجاب بعض الشى ، لا يفكر فى رفع حمالته ··

الا أن هذا لم يستمر سوى دقيقة ، فقد أطلقت ليزيت آهة واهنة وخرجت تهرول وهى تحاول أن تنظم فوضى شعرها ·

وفى المساء جعل بيلينكين يتمشى فى الردهة عدة مرات ، دون مبرر ، على أمل أن يقابل هناك ليزيت ·· ولكن دون جدوى ·

لم يلقها الا متأخرا بالليل ، عندما ذهب الى المطبخ · وكرجل رقيق الحاشية حياها باحترام ، ورأسه منعطف قليلا، وأتى بيده تلك الحركة المبهمة التى تعبر باتفاق عما نحسه من اعجاب وسرور ·

أعقب ذلك عدة مقابلات مشابهة ، فى الردهة والمطبخ ، قربت ما بينهما الى حد كبير ··

أصبح بازيل الآن يؤوب الى المنزل مباشرة ، حيث يستمع الى أى رنرنة تربتها ليزيت على المعزف ·· ويرجوها أن تقع شيئا « أكثر حنانا » ، على حد قوله ·

اذ ذاك كانت تعزف « فالسا » أو أى « رقصة أخرى ، أو تخبط بعض ألحان المقطوعة الثانية ، الثالثة أو الرابعة ـ الله وحده يعلم كم يوجد منها ! ـ من منتخبات « ليست » ·

وكان ، بيلينكين ·· الرجل الرزين، الذى عركته الدنيا ، ينصت اليها كما لو كان يسمع لأول مرة دقات المعزف المرتجفة النشاز · حتى اذا ما لاز بغرفته أخيرا ، واتخذ جلسة المستغرق ، جعل يفكر فى بهجة العيش ··

من ذلك اليوم بدأت حياة أفضل لميشيل روندوكف ؛ مرات عديدة كان بازيل يعطيه أربعة دراهم ، بل لقد أعطاه مرة عشرة دراهم ، وهو يطلب منه أن يصفر كلما كانت العجوز فى المطبخ وليزيت منفردة فى غرفتها ·

فيم كانت حاجة بازيل الى تلك المعلومات ، ذلك ما سوف يظل لغزا على الدوام · لقد كانت العجوز تتأمل العاشقين مبتهجة ، تتوقع أن تزوجهما فى الخريف فتتخلص أخيرا من ليزيت أما ميشيل ، فدون أن يحاول استيضاح بواطن الأمور كان يستجيب لدوافعه

الخاصة فيصفر ست أو سبع مرات كل مساء وهكذا يضطر بازيل أن يتريض من غرفة الى أخرى ·

وكان بازيل يدخل غرفة ليزيت فيجلس الى جوارها ويبادلها بعض عبارات تافهة ، ثم يسألها أن تعزف شيئا · وهناك ، أمام المعزف ، بعد أن تنتهى من العزف ، كان يضع يديه الخشنتين ، يدى من عركته الدنيا ، ودقته المدفعية الثقيلة ، فوق يدى الفتاة الشابة البيضاوين الرقيقتين ·· ويطلب منها أن تقص عليه تاريخ حياتها ، وهو يبدى اهتماما عظيما بماضيها · وأحيانا ما كان يتجرأ ويسألها ان كانت قد أحست رجفة الحب الحقيقى من قبل ، أم أنها تعرفها للمرة الأولى ·

وكانت ليزيت تبتسم فى غموض ، واصابعها تنزلق فوق مفاتيح المعزف فى هدوء ، وتجيبه بصوت خافت : « لست أدرى » !

٣ -

راحا يتحابان بشغف ··

لم يكن يسعهما أن يلتقيا بلا دموع ، ومع كل لقاء كانا يحسان موجة جديدة من السعادة تغمرهما ·

والواقع أن بيلينكين أحيانا ما كان يتأمل نفسه فى المرآة بشىء من الفزع وهو يفكر فى ذهول أنه ·· هو ، الرجل الرزين ، الذى عركته الدنيا ، ودقته المدفعية الثقيلة ، وقاسى ما قاسى لينتزع حقه فى الحياة ، حرى أن يضحى وجوده كله بسهولة فى سبيل نزوة واحدة عابرة لتلك الشابة ·

واذ يتذكر من مررن بحياته من النساء ، حتى آخرهن ، زوجة الشماس ولا مناص من الاعتراف على أى حال بأنه كان على صلة بها ، كان بازيل يؤكد لنفسه أنه الآن فقط فى عامه الثانى والثلاثين يعرف آخر الأمر ما هو الحب الصادق وما هى عذابات الفؤاد الحقيقية ·

وليس ثمة من يعرف لماذا ، النزوع طبيعى الى المعاناة الذهنية المجردة أم نفحة من نفحات الربيع ، أحس بازيل احساسا واضحا أن كل شىء كان عبثا ودونا اذا ما قورن بذلك الحب العظيم

أما هو ، الرجل الساخر بعض الشىء ، الذى عركته الدنيا ، ودقته المدفعية ·· الخ ··· ، وواجه الموت مرات كثيرة ، فقد أخذ ينظم الأشعار وكتب قصائد عديدة بل وأنشأ ملحمة أيضا

اننى لا أعرف أعماله ، بيد أن احدى قصائده وقعت تحت يدى والفضل للسيد « كرانتز » سكرتير تحرير مجلة « حكم البروليتاريا » · كان قد بعث بها الى المحرر تحت عنوان « عنها واليها » ، ولكنها رفضت باعتبارها لا توائم روح عهدنا ··

والمؤلف لن يسأم القراء بمقتطفات طويلة ، انما يكتفى بتقديم الفقرتين الأخيرتين منها ·· ولنقل أكثرها نغما :

فى قلبه العظيم ، كشعار ··
قد نقش : «فلاح ، غرام» ، وصورتك ينظم ·
حياته كلها ، على الدوام ·
أيا ليز ، يا ليزة ··
بقبلتك ·
حقا ، قد احترقت ·

لست أدرى ، فقد تكون هذه الأبيات

لا بأس بها من ناحية الشـــكل ، الا أننى متفق مع المحرر : أنهـا فعـــلا لا توائم روح عهدنا ..

ولقد هجر بيلينكين ، فيما بعد ، الشعر وسيرة الشعراء المخاتلة . نسى أعماله غير آسف ورجع يعيش حيـــاة عادية ، لا يسطر أفكاره الحمقاء فوق الورق .

كان بازيل وليزيت يلتقيان كل يوم فيتنزهان ، ويلحقهما الليل وهمـــا هائمـــان فى الطرقات أو الميـــادين المهجورة . وأحيانا ما كانا يهبطان الى ضفة النهر ، وهناك وهما جالسان فوق الرمال كانا يتأملان التيار المندفع فى نشـــوة . ومن وقت الى آخر كانا يتنهدان برقة ، وتتماسك يداهما ، وقد بهرهمـا جمـال الطبيعة وصـفاء السماء فوق رأسيهما .

كان ذلك يبدو لهما غريبا ، فاننا ، لا سيما وأنهما كانا يخالان رؤيته لأول مرة .

وبعض الأيام كانا يتجاوزان المدينة، ويتجولان فى الغابة . هنـــالك كانا يسيران على مهل ، وقد تشـــابكت أصابعهما ، يرق قلباهما لكل شىء حتى لأرنب عادى يصبح فجأة احدى عجائب الطبيعة .

فى تلك اللحظات كان بازيل ، وقد هزه فيض من البهجة ، يســـقط على ركبتيه ليقبل من الأرض آثار خطوات ليزيت .

وهناك فى السماء كان القمر يتلألأ ســاكنا والليل يغشاهما بغموضـــه ، والطرار يصيح ، والغابة تلغط، والهواء يبدو مجملا بالرقة والسلام .

كانت تلك هي ساعاتهما المفضلة .

الا أنه حدث أثناء احدى تلك النزهات المسحورة ، في ليلة رطبة ، أن أخذ البرد بازيل غير الحريص فاضطره أن يلوذ بالفراش .

وفي اليوم التالي أصابته الحمى وألم فظيع في حلقه ، وقبيل الليل بدأت رأسه تتورم بافراط .

وأقامت ليزيت الى جواره ، باكية، محلولة الشعر ، في قدميها خف ، تضطرب بين الفراش والمائدة لا تدري كيف تتصرف وماذا تفعل لتخفف من آلامه .

حتى العجوز كانت تأتي الى غرفته عدة مرات كل يوم ، تسأل ان كان المريض لا يرغب في شيء من مربى البرقوق ، شافية كل داء ـ في رأيها ـ من الأمراض المعدية .

وبعد يومين اتخذت رأس بازيل حجما مخيفا ، لدرجة أن ليزيت جرت تبحث عن طبيب . وجاء الطبيب ففحص المريض ووصف عدة أدوية ، ثم انصرف مستاء ، لم تكن لديهم أوراقا مالية فدفعوا له أجره دراهم غليظة .

ولم يكد الطبيب ينصرف حتى هرعت وراءه ليزيت ، وأدركته في الطريق لتغمغم وهي تفرك يديها :

ـ أما يزال ثمة أمل اذن ؟ لتعلم يا دكتور ، انني لن أبقى بعد موت هذا الرجل .

فأجابها الطبيب غير مكترث ، وقد ألف انفعالات أشد حالات اليأس ، قائلا ان التهاب الغدة النكفية ليس مميتا

ورجعت ليزيت الى المنزل وراحت تعتني بالمريض باخلاص لا تبخل بجهودها ولا تخشى حتى العدوى .

وفي اليوم الأول لم يكن بازيل ليجرؤ على رفع رأسه عن الوسادة ، فكان يتحسس عنقه المتورم وهو يتساءل في هلع ان لم تكن ليزيت منصرفة عن حبه بعد ما شاهدته في تلك الحالة الشنيعة والمثيرة للاشمئزاز .

غير أن الشابة كانت تطمئنه ، قائلة انه في رأيها أكثر مهابة مما كان قبل مرضه . فيضحك بارتياح وعرفان ، وهو يكرر أن ذلك المرض كان المحك لغرامهما .

٤ -

كان غراما عجيبا ..

يوم أن بارح بيلينكين فراش مرضه، واستعاد رأسه وعنقه هيئتهما الطبيعية ، خيل اليه أن ليزيت قد انقذته من موت محقق . وأخذت علاقتهما طابعا أكثر وقارا ، بل واستطيع أن أقول أكثر نبلا ..

ولهذا فقد تناول بازيل يد ليزيت ، أحد أيام شفائه الأولى ، يرجوها بلهجة من اتخاذ قرار لا رجعة فيه ألا تقاطعه بردود سخيفة أو ساخرة . ثم ألقى بحديث جد طويل وطنان ، يشرح كم يعرف .. هو ، بازيل ، معنى الصراع من أجل الحياة ، وكيف أنه كان فيما مضى عرا يستخف بالحياة ، الأمر الذي قاسى بسببه كثيرا ، الا أنه اليوم وقد تجاوز الثلاثين ينبض بالحكمة ويعرف كيف يجب أن يعيش ؛ أنه يدرك جميع القوانين القاسية التي تحكم المجتمع ، وأنه لهذا وبعد تقدير كافة نتائج تصرفه

قد قرر أن يدخل تغييرا ذا شأن على خطته فى الحياة ٠

موجز القول ان بيلينكين تقدم الى ليزيت يطلب يدها لزواج رسمى ، ملفتا نظرها جيدا الى أنه منذ اليوم لم يعد ثمة ما يوجب قلقها على مستقبلها وان كانت تستطيع أن تسهم بعملها فى ثروتهما المشتركة ٠

وبعد أن تصنعت وتحفظت قليلا ، بعد أن تحدثت عن جمال الحب الحر ، استجابت ليزيت لطلبه بسرور غير مخفى ٠ ثم أضافت أنها تنتظر ذلك من مدة طويلة ، وانه لو لم يتقدم بهذا الطلب لكان أحقر الحقراء ٠٠ وأنه بعد التفكير فى كل اعتبار ، رغم جمال الحب الحر ، فالزواج شىء آخر ٠

بعد ذلك هرعت ليزيت الى المطبخ لتنقل النبأ السعيد الى أمها ، ومن هناك الى الجيران تدعوهم الى العرس الذى كان لابد مقتصرا ، كما هو الواجب ، على أقرب المقربين ٠٠

وهنأها الجيران بحرارة ، يتلطفون فى قولهم ان لها حقا مدة طويلة فى انتظار هذا الحادث وانه لمن التوفيق أن تلقى آخر الأمر غاية لحياتها ٠

وذرفت الأم العجوز بطبيعة الحال بعض الدموع ، وقامت تبحث عن بيلينكين لتثبت من الأمر بنفسها ٠

وأيد بازيل الخبر ، وهو يستأذنها فى أن يدعوها « الوالدة » ٠ فأكدت له العجوز وهى تبكى وتتمخط فى مئزرتها أن لها من العمر ثلاثة وخمسين عاما الا أن ذلك اليوم هو أسعد أيام حياتها ، وطمحت بدورها فى أن تناديه «بازيل» مجردا ٠٠ الأمر الذى ارتضاه بيلينكين عن طيب خاطر ٠

أما ميشيل روندوكف فقد تلقى الخبر بغير اكتراث ، وانصرف لتوه يجوب الطرقات فى صحبة من الأوباش ٠

منذ ذلك اليوم لم يعد العاشقان يخرجان للنزهة ، فقد كانا يلزمان المنزل ويقضيان وقتهما فى مناقشة برنامج حياتهما المشتركة ٠

وحدث ، أثناء احدى تلك المناقشات، أن أخذ بازيل ينظم غرفتهما المستقبلة ٠ فتجادلا طويلا ، بانفعال ، حول موضع كل من الفراش وحوض الاغتسال ٠٠

جعل بازيل يكرر دون توقف أنه يجب ألا يأتيا حماقة فيضعا الحوض فى أحد الأركان ٠٠ يقول :

ـ هذا مبتذل ، الناس كلها تفعل ذلك ٠ انه لأجمل تنسيقا بكثير أن نضع فى الركن صيوان الملابس الصغير الذى سوف تهبنا اياه الوالدة ، ذلك الصيوان المغطى بالمفرش المخرم ٠

فتقاطعه ليزيت :

ـ الصيوان فى الركن ، ذلك بالضبط هو المبتذل ٠٠ ثم ان الصيوان تملكه أمى وليس من المؤكد أنها سوف تهبنا اياه ٠

ـ هاك حماقة ! لنر كيف يمكن أن تأباه علينا ٠٠ ومع ذلك فنحن لا يسعنا أن نحتفظ بقمصاننا فوق حافة النافذة ، أليس كذلك ؟

ـ أنا راغبة فيه ، بازيل ، فحدث عنه أمى ٠ قل لها صراحة ، ودون حرج : والدتى ، سوف تهبيننا الصيوان ٠٠ أليس كذلك ؟

ـ الحق انه لعبث أن أتعب نفسى ، ولكن ان كنت تصرين يمكننى أن أذهب اليها فورا .

وذهب يطلب العجوز فى المطبخ ، ولما كان الوقت جد متأخر فقد وجدها نائمة . وراح يهزها طويلا ، الا أنها لم تكن تبلغ حد اليقظة وفهم ما يراد منها .. فطفق بازيل يخاطبها بصرامة .

ـ هيا ، أفيقى ، يا والدتى . أيمكننا ، ليزيت وأنا ، أن نطمئن الى قدر من الرفاهية ؟ أجل أم لا ؟ قمصاننا لا يمكن أن تظل مع ذلك على حافة النافذة ، أليس كذلك ؟

وما أن أدركت العجوز بصعوبة ما يراد منها حتى شرعت تئن قائلة ان الصيوان من واحد وخمسين عاما وهو يشغل نفس الموضع ، وانه ليس لديها أية رغبة فى أن تجرره من مكان الى آخر ، وانه كان عليه مع ذلك أن يفهم هذا ولا يضايقها بمقترحات شاذة الى هذا الحد .

عندئذ أخذ بازيل يعيرها ، مفهما اياها جيدا أنه .. هو ، الرجل الذى عركته الدنيا ، ودقته المدفعية الثقيلة يستحق مع ذلك حياة هادئة ومريحة .. يقول :

وبعد فلن تأخذيه معك الى القبر يا والدتى أليس كذلك ؟

ـ لا ، لا ، لن أهب الصيوان . ليس عليك ، بعد موتى ، الا أن تأخذ ما تريد .

فيصيح بازيل مقهورا :

ـ بعد موتك .. فلننتظر اذن !

واذ رأت العجوز أن الأمر أصبح خطيرا فقد انفجرت تبكى ، وتنوح ، واقترحت أن يفصل فى الأمر فم طفل طاهر وبرىء ، تعنى ميشيل .. خاصة وأنه الوريث الذكر الوحيد للعائلة والصيوان من حقه قانونا .

فلما أيقظا ميشيل أبى أن يسمع من الأمر شيئا .. قائلا :

ـ مقابل الدراهم الأربعة التى منحنى اياها كان يريد الصيوان ، ما أخبثه . انه أغلى من ذلك .

اذ ذاك صفق بازيل الباب ، ورجع الى ليزيت يأنبها تأنيبا قارصا .. معلنا بلهجة قاطعة أنه بدون الصيوان تنهار حياته نهائيا وأنه مهما كلفه الأمر فلن يتراجع خطوة واحدة ولن يتنازل أبدا عن مبدئه .

وأخذت ليزيت تجرى حائرة بين بازيل وأمها ، ترجوهما أن يتوصلا الى اتفاق .. بل وتعرض ارضاء للطرفين أن تغير موضع الصيوان كل أسبوع .

حينئذ أشار بازيل على ليزيت أن ترقد حتى يمكنها ، فى الغد ، بجهود منتعشة ، أن تبحث وتحل تلك المعضلة الخطيرة .

ولم يأت الفجر بجديد .

فقد أعلنت العجوز بكل قوتها ، فى غضب متناه ، أنها الآن تعرف لعبة السيد بيلينكين . وأنه اذا كان يتشدد اليوم فى طلب الصيوان فهو قادر ،فيما بعد ، أن يقطع حماته شر تقطيع ! .

وظلت ليزيت تصيح باكتئاب ، وهى تجرى من الواحد الى الآخر ترجوهما أن يكفا عن التنازع ويفحصا المسألة من جميع وجوهها .

عند هذا الحد انفجر بازيل يصيح أنه سوف يتقدم بشكوى ، أنه سوف يطلب اعتقال العجوز لقذف وتلميحات مخزية بجلاء .

بيد أن العجوز ، غير راغبة فى الهدوء ، تمادت قائلة انها بلغت من

العمر ما يسمح لهـــا ـ دون حتى أن ترفع صوتها ـ بأن تواجه الناس جميعا برأيها . وان بازيل قد تنـــاول معهم العشاء ثلاث مرات وأنه حتى لم يكلف نفسه عناء تقديم أدنى شيء مقابل ذلك. هذا هو ! .

فاستبد الانفعال ببـــازيل ، واجاب بمرارة وسـخرية أنه خلال نزهاته مع ليزبث قد اشترى لهـــا مرارا عديدة أنواعا من الحلوى ، مرتين اشترى لها باقات من الزهور ، وأنه حتى لم يفكر في أن يفتح فمه لطلب مقابلا .

الا أن ليزيت أعلنت عندئذ ، وهي تعض شفتيها ، أنه يكذب بلا حياء ، وانه لم يقدم لها أبدا غير بعض الحلوى الرخيصة مرة أو مرتين وباقة واحدة متواضعة من البنفسج لم يـــكد يشرق عليها الصـــــباح حتى كانت قد ذبلت تماما .

ثم غادرت الغـــــرفة وهي تبكي ، وتركت كل شيء معلقا ..

وأراد بازيل أن يهرع خلفها ، يعتذر عما استباحه لنفسه من مغالاة ، الا أن الأمر انتهى به وقد هاجمته العجوز الى معاملتها كعجوز شرســـة وغادر المنزل بعد أن بصق في وجهها . ولم يرجع الا بعد يومـــين ، ليعلن بلهجة رســـمية وفاترة أنه لم يعد يرى من الممكن سكنى تلك الشقة .

بعد ذلك مباشرة نقل مقتنيـــاته الى المنزل المجاور ، ذلك المنزل الذي تسكنه أسرة « أوفتشينكوف » .. أما ليزيت فقد ظلت حبيسة غرفتها بطريقة مسرحية لمـدة يومين . وفيمـا بعـد زواجه من « مارى أوفشنيكوف » وان بازيل اذا ما مر بليزيت حيـــاها بأدب في فتور دون أن يتوقف .

د ـ هكذا ينتهي غرامهما ..

ولا شك أنه في أزمنة أخرى ، بعد ٣٠٠ سنة ربما ، لن ينتهي هذا الغرام هـــكذا .. بل يتفتح كباقة من الورود الرائعة والعطرة .

غير أن الحياة ، كما كان يقول بازيل تحكمها قوانين قاسية ..

أما وقد ختمت قصته فالمؤلف يرى نفسه مضطرا الى الاعتراف بأنه وهو يروى هذه القصة الغرامية البسيطة ، مأخوذا بأطوار الأبطال ، قد نسى تماما العندليب الذي ذكره بذلك الغموض في العنوان .

انه ليخشى أن يعترض قارىء أو حتى ناقد خبيث ، قائلا :

ـ اسمح لي ، ولكن أين هو العندليب اذن ؟ أترى ؟ انك لتريد أن تغرى القارىء بعنوان يفيض بالوعود !.

وانه لمن العبث ، بلا شك ، أن نحكي من جديد كل أحداث قصة هذا الغرام. وأنا حتى لن أحاول ذلك ، الا أنني أود أن أضيف للاعتذار حادثا عارضا .

كان ذلك ابان ذروة غرامهما ، وهما في أوج عاطفتهما ، عنـدما كان بازيل وليزيت يتنزهان في الغابة ليلا هناك وهما يستمعان الى صياح الصرار ، أو تغريد العندليب ، كانا يسكنان بلاحركة لحظات طويلة ، وقد تماسكت يداهما ، لا ينبسان بكلمة .

ثم تتساءل ليزيت همسا :

ـ بازيل ، خبرني ، لمـــاذا يغرد العندليب ؟ .

فيجيبها بازيل :

ـ لماذا يغرد ؟ حسنا ... لأنه يريد أن يأكل بنهم ، قطعا .